



كانت الساعة السابعة إلا ربعاً عندما وصلنا إلى مشارف دمشق وكان منظراً مهيباً أن ترى هذه المدينة العظيمة تستيقظ مع ساعات الصباح الأولى.

ولكن ما عكر هذا المنظر هو صوت انفجار رهيب هز أركان المدينة من كافة أرجائها، ولم نكن نعرف بالضبط مصدر هذا الانفجار الضخم، تسارعت الخطوات باتجاه مقر إقامتنا ولكن الذي حدث ليس بالأمر السهل على ما يبدو.

فقد اختلفت حركة السير في جميع أرجاء دمشق وتم إغلاق كافة المحاور المؤدية إلى وسط المدينة، وأشد ما لفتني في تلك اللحظة هو رؤية وجوه مؤيدي الظلم والعدوان، فقد كانت وجوههم خائفة مكفرة مسودة.

نعم لقد رأيت في وجوههم الرعب والخوف والذعر، لقد رأيت في أعينهم رهبة شديدة وكان يوم الحساب قد جاء ليحصد رؤوسهم، وكأنهم قد استفاقوا من عهرهم وعربتهم، وكان سكرات الموت المخيفة قد باغتت قلوبهم فأوهنتها.

لم أرى رجال أمن النظام وشبيحاته وزبانيته خائفين كما رأيتماليوم، بل كان أكثر من الخوف، إنه الفزع الممزوج بالرهبة والمعطر برائحة الموت.

لأول مرة أعبر حاجز أمنياً أسدياً دون أن أشعر بالخوف، لأول مرة أشعر بأنني كسرت جبروتهم وحقدتهم وكراسيتهم.... لكل ما هو إنساني، لأول مرة أشعر بأنهم قد أسقطوا بأيديهم، فهم كالأنعام بل أضل لا تجد راعيها، لأول مرة في دمشق الفيحاء أشعر بأن زيانة الأسد باتوا يتخطبون ببعضهم كالثيران المفجوعة التي لا تعرف كيف وأين تتجه، لقد شاهدت الأجهزة الأمنية مهرعة فزعة لمكان الانفجار، تتباطط فيما بينها دون تنسيق أو قيادة، تخالهم على قلب رجل واحد ولكنك عندما تمعن النظر فيهم تجدهم متناقضين متضادين فاقدوا الثقة فيما بينهم ولا يعرفون عدوهم من صديقهم، تخالهم كقطع الغنم المذعور من انقضاض الذئب عليهم.

وفي الحقيقة إنه ليس الذئب من سيقضي عليهم وعلى أمثالهم، إنه الحق الذي منه يخافون.
ولكنه "الآن حصص الحق" وأن "الله لا يهدي الخائنين"، "فهل من مذكر" صدق الله العظيم.

لقد رأيت هذه النظارات من قبل، نعم لقد رأيتها في وجه ملك ملوك أفريقيا، في عيني طاغية ليبيا عندما أخرجه الثوار الأبطال من المجارير فقال لهم والخوف يملأ قلبه "شو في!!! خيركم خيركم أنا أبوكم"، وكأنه استفاق فجأة من غفلة عميقه استدامت 42 عاماً من الحقد والطغيان واستعباد للحرائر والأحرار.

نعم هي نفسها تلك النظرة، التي سوف أراها قريباً على وجه طاغية الشام، عندما يخرجه الثوار من جحده، طریداً ذليلاً منكسرًا، وقد تخلت أذنابه عنه كي تسعي بجلدها، وهو يناشد الثوار ويقول لهم: "يا شباب طولوا بالكم، والله أنا ما دخلني، يا شباب....."، عندها سيجيئه الثوار بصفعة على رقبته ويصرخون في وجهه "خرااااس.... ما بدنا نسمع منك ولا حرف"، هنا سيطرق رأسه صاغراً منكسرًا راكعاً تقاد جبهته تطأطي الأرض، مستسلاماً لمصيره المحتموم.

هنا برقت عيناي واستحضرت روحني جميع أرواح شهداء الحرية والكرامة، استحضرت روح حمزة الخطيب وإبراهيم القاشوش وغياب مطر وكل أطفال ونساء ورجال سوريا الذين استشهدوا على يد هذا السفاح المجرم، وهم ينظرون إليه وهو ينال عقابه المستحق في الدنيا قبل الآخرة على ما جنت يداه، كي تستريح أرواحهم وأرواح أحبابهم من بعدهم.

وإني أرى أن هذا اليوم ما هو بعيد، فصبراً إخوتي على ألم نال منا عقودا طويلة وأن له أن ينتهي، ولا بد للفجر أن ينجلـي.
عاشت سوريا حرـة أبية

المصادر: